-٧-

حبيب جاماتى*

لو كتب تاريخ الوعى الصحافى الحديث فى مصر والبلاد العربية وفصل المؤرخ او الباحث القول فيمن شاركوا حركة البعث والبناء وادخال الروعة والتجديد فى حياة الصحافة ورسالتها لجاء ذكر الاستاذ حبيب جاماتى فى الطليعة، فهو صحفى بطبعه ومزاجه وان صح التعبير قلت انه موهوب فى هذا الفن الاصيل من مفرق شعره الى اخمص قدميه.

ادركته هذه الحرفة الشاقة منذ كان فتى ناشئا بلبنان ولما جاء مصر تاقت نفسه الى الصحافة فاندمج فيها ومارسها ومارسته حتى طاوعه القلم وحفزته الموهبة والتجارب فانقادت لرجاحته واخلاصه على الصبا وريق العمر، ولم يكن من دأبه التقليد والمحاكاة فلما طلع على الناس بآثاره التى احتوت الفن والابتكار قرأوه بشوق واعجاب وتتبعوه بأمل وانتظار.

كانت الصحافة العربية اول عهد الناس بها بعد الحرب العالمية الأولى ضربا من المقال المسرود والخبر المستفيض وحشدا من

* تكتب أحيانا جماتى كما ورد فى الأصل.

البرقيات والشؤون المحلية، والاقليمية بأداء لا يخلو من الترادف والتسجيع حسبما كان معروفا ومألوفا، فلما جالت فى موضوعاتها اقلام حرة مثقفة نهجت هذه الصحافة نهجا جديدا، وتبدلت مطالب القراء الذين دب الوعى فى صفوفهم واصبحوا يتطلبون جدة وتنويعا وسبقا، وتحريا للحقيقة اينما كانت، وقد عد هذا التجاوب بين الصحافة الحديثة وبين قرائها تطورا ملموساً يستطيع عالم الاجتماع ان يرى فيه حركة تحول فى اساليبها ومظهرها وتحررها من جمودها القديم وتقاليدها الموروثة لتمضى مع حاجة العصر والمجتمع والحضارة التى دخلت الحياة الخاصة والعامة.

وكان الاستاذ جاماتى من شهود هذا التطور العنيف ومن جنده المستبسلين فى معركته الظافرة التى احلته فيما بعد مكانته الجديرة بمواهبه ومراياه، على ان الصحافة التى مضت فى تحولها المحسوس لتساير هوى الجمهور وتلائم بين مصلحة اصحابها وبين مراد الساسة والحكام لم تستطع ان تجرف الاستاذ حبيب جاماتى بتيارها وتستهويه بسحرها فبقى مع فئة من انداده المتمرسين بالصدمات والجهاد حفيظا على العهد وفيا للرسالة الكبرى، منزها قلمه عن تلاوين الظروف والانسياق مع الحوادث والايام فالحقيقة الراهنة هى هدفه ومناه مهما تألبت الشدائد وتعسرت الاحكام، وكانت سلواه اذا احب ان يخلص من اشواك السياسة ان يرمى نفسه بين ورد الفكر والادب فيطلع على قرائه من حين الى حين بطرف من التاريخ اهملها المؤرخون المعاصرون وقصص فى الحب والحماسة اذا قرأها

المتعلم والمثقف، المرأة والرجل، تمنى ان لا ينتهى منها، وما اشبه الصحافى المطبوع بالممثل البارع يظهر على المسرح بأشتات المشاهد فاذا ظهر الاستاذ جاماتى صحافيا بالعربية، مختصا بافأنين فيها، وكاتبا للقصة والتاريخ بلغة الضاد فاننا لم نعجب ان رأيناه ضالعا ايضا فى افق آخر هو الصحافة الفرنسية بمصر والبلاد العربية، وقد ملك قيادة اللغة الباريسية اذ هو اديب فيها يفهم اسرارها وينقد اشعارها ويجرى قلمه فى معانيها كأهلها من الموهوبين، كما ان الصحافة الفرنسية فى مصر وجدت بقلمه ورأيه عونا منه لها وتبصيرا فيما تكتب بغير لغة البلاد، فكان حبيب جاماتى عنصرا طيبا فى هذه الصحافة الاجنبية وديدبانا عليها رقيبا، لئلا تنحرف عن رسالتها فيما اسست من اجله.

وللاستاذ جاماتي صلات مودة بأقطاب الصحافة الفرنسية ورجال القلم فيها، فهو دؤوب المطالعة والتتبع لما ينشر هؤلاء المحررون والمفكرون فى صحافة بلادهم عن وثبة العروبة وهبة الشرقيين ونضالهم وسعيهم الى التحرير والاستقلال، فاذا قرأ الجاماتي مقالا لكاتب غربي يتجنى على العرب ويسيئ الى جهادهم واتحادهم فسرعان ما يشرع هذا الصحافي الامين قلمه الحر لدفع المساءة وتبيان الحقيقة التي يجهلها كتاب الغرب عنا وفيهم من انبسط صيته فى مجال الفكر والادب واتصل بحياتنا اتصالا طويلا.

لقد تعددت جوانب العبقرية فى هذا الصحافي اللبق الذى أوتي حاسة النقد وثقافة الفكر ومرانة السنين فهو يفهم السياسة من ابوابها

ومنافذها، وكان يصطنع فى عهوذ الطغيان اسلوب الحكيم فيجرى التورية والكتابة فى مقالات له مشهورة مازالت موضع التقدير والاعتبار، فكم ثعلب سياسة صوره الاستاذ حبيب مكشوف اللعبة كاشر الفم عن ابتسام ماكر، وقد قدر ساسة العرب قدر هذا القلم الجبار وما اوتى من الحذق والصدق فى تصوير الاحابيل والخفايا فيما يأتمرون به ويظهرون، وما كان اتصاله بالكبراء والمفكرين ملقا او زلفى او ابتغاء مرضاة او مال كما صنع بعض المحترفين من الصحافيين بل كان رايا ناضجا ومجهودا خالصا لوجه الحق قبل كل شيء ثم لخير مصر والعروبة فما من خطب ألم بوادى النيل او بأرض عربية إلارأيت الجاماتي سباقا الى الكتابة فى ذلك الخطب كاشفا عن اسبابه داعياً الى اتحاد الشعوب وتصفية القلوب، ومانزلت بقوم نازلة ضيم وتشريد إلا هب من اجلها حبيب رافعاً الصوت فى النجدة والغوث والتناصر تارة وفى صب جام الغضب على من كانوا السبب تارة اخرى، وكان يدعوه السبق فى الحوادث والتيقن فى الاستطلاع والوقوف على الحقائق من مأتاها ومظانها الى الرحلة والتطواف فى كثير من البلاد الشرقية والعربية غير عابئ بالمعاناة فى سبيل غايته ورسالته ولو ان الجاماتي مال مع رياح السياسة ولم يتخذ الوطنية والحقيقة وجهة وهدفا لكان اليوم فى عداد الذين جعلوا الاقلام مجازا للجاه والمال.

قلت من قبل ان هذا الصحافي الموهوب اوتي ادب النفس والقريحة فهو كاتب باللغتين خطيب باللسانين، سمعته فى حفل

ادبي يرتجل كلاما دقيقا شائقا بالفرنسية التى اتقنها، محللا قصيدة للشاعر الفرنسى موسكينيلى الذى نزل القاهرة فى العام الماضى ونظم مقطوعات يناجى فيها عمر الخيام وجلال الدين الرومى ويمضى عى غرارهما حاملا طاقة من ازاهير المشرق فواحة بعبير الاحلام الفارسية، فاستهوى الاستاذ جاماتي سامعيه بتحليله الجميل وتعليقه الظريف.

وسمعته يخطب فى النادى الشرقى حيث يتلاقى اهل الفكر والوفاء من بلاد لبنان والعروبة متصلين باخوانهم الأدباء المصريين فكان موضوع حبيب الجاماتى ممتعا رائعا لا يحذق القول فيه الامن اوتى دماثة فنه وخفة روحه، كان كلامه على ضروب من الغناء الشعبى فى لبنان، وكانت ترفده فى خطابه وادبه موسيقى فاضل الشوا وغناء مطربتين كالزنبقتين اطلعهما الجيل الملهم نشادتين بجماله الاخاذ وطبيعته الموحية ومجده الباقى على الزمان فرد الجاماتي سامعيه من ضفاف النيل الى ضفاف اللبردونى وسفوح الاعالى من الارز وصنين وغيرها من تلك الربوع التى يعبق فيها الصنوبر ممزوجا بعرار الوادى الاخضر فى لمحات الصباح وهبوط المساء.

كانت عيناى اذ ذاك تتقلبان فى وجوه ذلك الجمع الساكن المسحور الذى ارتدى ارواحه فى تلك الامسية الحالمة الى لبنان مأخوذا بغناء صباح ونهوند وادب الجاماتي الظريف، فعاد كل من الحضور الى قريته وذويه ذاكرا فى الخاطر والخيال اهله الأولين

وملاعب الصبا بين الكروم وعند ملتفات العرائش وافياء التين والزيتون.

وكنت افكر بالرسالة التى يؤديها الاستاذ حبيب نحو وطنه الاول فأجدها اكثر تجاوبا وتجارب وابعد اثرا ونفاذا مما تؤديه السفارات الدبلوماسية، واى سورى ولبنانى او فلسطينى او اردنى ورد مصر أديبا مخلصا او مجاهدا ناصحا للعروبة والثقافة والفكر كان تمازجه باخوانه المصريين على حقيقة وكرامة اعم فائدة وابقى خيرا وذكرا، وقديما كانت السفارة الروحية والفكرية بين مصر والبلاد العربية ممهدة لهذا التعارف والتناصر مؤيدة للاسباب الباقية ولاروابط الوثيقة.

اما الناحية الادبية فى الاستاذ جاماتي فقد برزت فى دقة فهمه للأدب الرفيع فى اللغتين وصحة حكمه على التاريخ والاشياء واخذه حوادثه من عالم الحقائق فقد مازج بين الفنين الادب والتاريخ واتقن سكب الاحاديث فى تلاوين الصور وروائع العبرة فكم احدوثة عن السلطان الاحمر على ضفاف البوسفور حيث كانت تقوم الاسوار الشامخة ووراءها غانيات وحسان كاللواتى كن فى الف ليله وليلة، هنالك يمر الكاتب بقلمه فيجلو للاعين والخواطر اروع ما يمكن لمؤرخ او اديب ان يؤديه للادب والقصص، وان النظر والخيال ليترامیان خلف سوءة من عهود الفاطميين والصليبيين والاندلسيين فنرى بعثا لدنيا غابرة كان الاستاذ جاماتي يستطيع بفنه ان يستردها حية خافقة بالرداء والجسوم والالوان.

فتاريخ ما أهمله التاريخ عنوان غدا مقرونا باسم حبيب جاماتي

منذ ربع قرن فلوجمع ما ألف فيه وصنف لجاء مجلدة ضافية، ومن عجب ان يطالبه الناشر بوضوعات خفيفة عابرة يضمن رواجها ويتأبى على المؤلفات التى تمتع الفكر والروح بفنها وطرفتها، ولو اخلصت دور الصحف والنشر اللبنانية الاصل والتى وهب لها الجاماتي زهرات ندايا من شبابه وادبه لاخرجت له فى كهولته اليوم كتبا وقصصا تكون بعض التقدير والكفاء لجهده الطويل المثمر.

واذا تحدثت بالشمائل الجاماتية كان من حقها على وانا اودع فى هذه الصور الشآمية مزايا الموهوبين المخلصين ان اذكر السبب الذى أعان الاستاذ الجاماتي على تفوقه وتوفيقه فى مهمته ووجهته ذلك هو الصدق والقول الصراح فى الاداء والحديث، وقد تكون الحرية والصراحة من معوقات النجاح فى الحياة فمن دأبهما ان تؤذيا احيانا او تسيئا الى صاحبهما لكن لباقة الجاماتي، والجاماتي لبق فى معاملته وكلامه، لبق فى اسلوبه. وابتسامته تعلن حدة الصراحة وتجعلها سائغة حلوة وقد كانت مريرة، ولعل هذه الميرة من اسباب المودة الخالصة والاخوة البارة بينه وبين اخوانه المصريين الذين يختصهم بالمحبة والتقدير ويدفع عنهم كل ضيم وقد وقف قلمه على نصرتهم والذود عن حقوقهم وحريتهم.

وكم يجدر بمثلى وقد عرفته نصيرا للمرأة المتعلمة والمثقفة ان اذكر بعض مآثره فى هذا السبيل ولكن المجال لا يتسع فى هذا المقال، وحسبى ان اشيد هنا بفنه وتجديده واصور لمحات من مجهوده فى الصحافة التى يؤثرها ويحررها، وانه لزاهد فى دنياه زهادة العلماء

الغابرين، ولولا الادب الذى يعيش فى افقه كلما ارهقته الصحافة لتبدلت ايامه، ولكنه فى كل يوم تزدان روحه بأنسها الدائم ومرحه العذب وفلسفته الضاحكة لتنسيه ما فات ولتعده من جديد لامل منشود، لا لنفسه واهله انما لمصر التى احبها وللعالم العربى الذى احبه وعاش مع قضيته الكبرى منذ نشأتها حتى الساعة، فلو تيسر له نشر مذكراته فى هذه القضية وملحوظاته لاطلع الناس على أدق الحوادث واصدق الانباء والعوامل التى اختلف الباحثون فى تعليلها، لان تيارات السياسة التى اخذت بتلابيب الشرق العربى كانت كثيرة ومتضاربة، لكن الجاماتي وعنده علم القضية وقصة تطورها قد استطاع فيما اعده للنشر ان يجلو الحقائق من ظلمائها وان يفسر الرموز التى بقيت خفية حتى اليوم.

ولعل منصفا عارفا بالصحافة العربية الحديثة عامة والمصرية خاصة يتصدى فى قريب او بعيد لتأريخ حياتها التى دخلها كثير من الالوان والصور مستنبطا منها الحكم على الحوادث والامور معددا مآثر جندها الامناء، والصحافة كما يقولون ملكة صولجانها القلم وعرشها الصحف وتاجها الاخلاص للحق والوطن، عندئذ يبرز حبيب جاماتي خافقا بين يدى الملكة التى كانت راضية عنه وان غضب بعض الرعية من المتنافسين.

* * *